



التداخل المعرفي بين علم الصوتيات
وعلم التجويد وعلم القراءات

Cognitive Overlap between Phonetics, Beautifying Recitation
and Reading Sciences

خلف الله بن علي¹ بن نجة فتيحة²

¹ جامعة تيسمسيلت benali.khalfallah@gmail.com

² جامعة تيارت bennadjafa93@gmail.com

ملخص

لا يجد الباحث عنقا في إثبات التداخل الكبير بين علم الأصوات من جهة وعلم التجويد وعلم القراءات من جهة مقابلة، وهذا البحث يحاول إثبات ذلك التداخل والتقاطع بين هذه العلوم الثلاثة عن طريق التنقيب في التراث العربي من خلال جهود المتخصصين في هذه المجالات المعرفية المتعلقة بالنص القرآني، لاهتمام المسلمين في كل عصر بكتابتهم المقدس حفاظا عليه من اللحن والتحريف والتأويل الخاطئ.

كلمات مفتاحية: علم الأصوات؛ الصوتيات؛ القراءات؛ التجويد؛ مخارج الأصوات؛ الحروف.

Summary:

The researcher does not encounter difficulty in establishing the significant overlap between the field of phonetics on the one hand and the sciences of Tajweed (beautifying recitation) and reading on the other. This research aims to demonstrate the intersection and overlap among these three fields by exploring the Arabic heritage through the efforts of specialists in these cognitive domains related to the Quranic text. This is due to the Muslims' concern in every era to preserve their holy book from mispronunciation, distortion, and incorrect interpretation."

Keywords: phonetics; sound studies; Reading; Tajweed (beautifying recitation); articulatory points; letters

لاشك أن التداخل بين علم الصوتيات من جهة وعلم التجويد من جهة مقابلة تداخل تكاملي، باعتبار أن علم التجويد ينبي أساسا على الظاهرة الصوتية، ونلاحظ في العصر الحديث التطور الكبير بل والهائل لعلم الصوتيات ومرد ذلك للتطور المهول في مجال التقنية والاختراعات المعاصرة للأجهزة الصوتية، فقد حاول المشتغلون على علم التجويد الاستعانة بهذه الأجهزة لغرض تطوير هذا العلم بطريقة علمية دقيقة.

وقبل ذلك فقد كانت للعلماء العرب قديما جهود معتبرة في مجال الصوتيات والتجويد؛ وسنحاول في هذا البحث التنقيب عن العلاقة بين الصوتيات والتجويد بالإضافة إلى علم القراءات القرآنية لما له هو الآخر من صلة بهذين العلمين، وذلك من خلال الجهود المعرفية التي قدمها علماء التراث في هذا المجال والتي لازال المعاصرون يتكئون عليها.

2- علم الأصوات في التراث العربي:

لقد تعرض أسلافنا إلى علم الأصوات باستفاضة وإن لم يصنفوا فيه مصنفات مستقلة، كما فعلوا مع علوم اللغة الأخرى كالنحو والصرف والبلاغة والعروض. وهؤلاء ورغم أن ما توفر لهم من تقنيات كان بسيطا؛ إلا أنهم أنتجوا معرفة معتبرة في مجال علم الأصوات، مستعينين في ذلك بحواسهم الطبيعية في دراسة الأصوات ودرجاتها ومصادرها، وقد كانت دراسة ابن سينا الموسومة ب(رسالة في أسباب حدوث الحروف) خير دليل على ذلك، إذ قدّم هذا الفيلسوف والطبيب تشريحا كليا للحنجرة، محاولا استكشاف علاقة الأصوات بالأعضاء الموجودة في الحنجرة، وقد وجدناه قد قسم فصول الكتاب إلى ستة فصول وهي: فصل في سبب حدوث الصوت، وفصل في سبب حدوث الحرف، وفصل في تشريح الحنجرة واللسان، بينما خصص الفصل الرابع للأسباب الجزئية لحرف من حروف العرب، وخصص الفصلين الآخرين على التوالي؛ فصل في الحروف الشبيهة بالحروف وليست في حروف العرب، وقصص في أن هذه الحروف قد تسمع من حركات غير نطقية.

أما علم الأصوات لدعلاء اللغة فقد تعرض له الكثير من العلماء المعاصرين، وقد أجمع أغلبهم على إبقائه في دائرة الكلام المنطوق حصرا، وقد قسموه إلى علم الأصوات الفونيتيك (La Phonétique) وهو العلم الذي يهتم بالأصوات في حد ذاتها من حيث صفاتها ومن حيث مخارجها ومن حيث سماعها، كما تعرضوا لعلم وظائف الأصوات الفونولوجيا (La Phonologie) وهو يختلف عن الفونيتيك بحيث يدرس الأصوات من حيث وظائفها أثناء

الاستعمال، وهذان الشقان-كما نلاحظ-هما ما جادت به قرائح العلماء المعاصرين من استكشافات؛ أي بعد التطور الكبير الذي شهده البحث في علم الصوتيات. ويتفق دارسو الصوتيات على أنّ الصوت الإنساني هو ككل الأصوات منشأها الحنجرة والتي تبعث بأصوات على شكل ذبذبات، فبعد خروج الهواء عبر الرئتين تتلقفه الحنجرة فتحصل اهتزازات وبعد خروج هذه الاهتزازات من الفم والأنف تنتقل عبر الهواء في الخارج في صورة موجات تصل إلى الأنف.

والصوت الإنساني جد معقد كما هو معروف؛ فنجده يحوي أنواعا مختلفة من الظواهر كالشدة والقوة مثلا، وكذلك تباين المقامات الصوتية، وما زاده تعقيدا هو تميز كل إنسان بصفة صوتية خاصة به، تجعل صوته متميزا عن غيره من أصوات البشر، ومن الظواهر أو المميزات التي تميز الصوت الإنساني أيضا أنه عندما ينطق تتغير درجات صوته عند كل مقطع تقريبا. وأثبتت الدراسات الطبية والتشريحية أن مصدر الصوت الإنساني هو الحنجرة، وبالتحديد الوترين الصوتيين فيها.

وإذا عدنا إلى الدرس الصوتي في التراث العربي فإن متخصصي هذا الشق من المعرفة يعتقدون أن (ابن جني) هو أول من تحدث عن قضية الصوت في التراث العربي، ونظر إليه على أنه علم قائم بذاته، إضافة إلى أنه أول من استعمل مصطلحا لغويا وسم به هذا العلم ونقصد (علم الصوت)، وإن سبقته جهود بعض العلماء إلا أنها لم ترق إلى ما أنتجه هذا العالم من دقة بحث وتشعب مسائل، ونجده يحدد الصوت بأن خروجه من النفس بشكل طولي أو مستطيل، ثم يصل بعد ذلك إلى الحلق والفم والشفيتين فيتوقف عن الامتداد والاستطالة فيتحول إلى حروف، وتختلف أصوات أو أجراستلك الحروف بحسب اختلاف مقاطعها¹، نلاحظ من خلال هذا التحديد أن ابن جني قد أشار إلى مقاطع الصوت من حيث الامتداد والاستطالة، وقد سمى المقطع عند الإنشاء حرفا، وميز بين الجرس الصوتي لكل حرف وذلك حسب اختلاف مقاطع الأصوات، وقد وضع -فيما بعد- لكل حرف جرسا ولكل جرس صوتا.

ويجمع الدارسون في هذا المجال أن القدماء من علماء العربية كانت لهم بحوث مهمة في علم الأصوات اللغوية، أو الصوتيات، وقد نوّه بذلك المحدثون وأشادوا به، ووصفوه تلك المجهودات بأنها ذات قيمة علمية كبيرة جدا بالمقارنة للزمن الذي عاشوا فيه والإمكانات

المتوفرة لهم آنذ، وقد كانت غايتهم الأولى هي خدمة القرآن الكريم كتاب الله عز وجل في المقام الأول، واللغة التي نزل بها أي العربية ثانيا، والنطق العربي أخيرا، وقد أنتجوا معرفة ضخمة في مجال الترتيل القرآني وتحسينه، "ولقرب هؤلاء العلماء من عصور النهضة العربية واتصالهم بفصحاء العرب كانوا مرهفي ودقيقي الملاحظة، فوصفوا لنا الصوت العربي وصفا أثار دهشة المستشرقين وإعجابهم"²، ومن بين هؤلاء العلماء الذين كانت لهم جهود معتبرة نجد الخليل بن أحمد الفراهيدي والذي يعد من الأوائل الذين درسوا الصوت اللغوي مفردا ومجردا عن سياقه، وقد وجدنا ذلك في مقدمة كتابه المشهور (العين)، والذي رتبته صوتيا - كما هو معروف-؛ أي حسب مخارج الحروف من الجوف فالحلق وصولا إلى الشفتين، وهذا فرض عليه فرضا دراسة أعضاء النطق وتقسيم الأصوات إلى صحيحة وصائتة، وتطرق للجهر والهمس وغيرها من القضايا.

ويأتي بعده سيبويه الذي حدد مخارج الأصوات وحدد أصوات كل مخرج كما وصف كل مخرج، إضافة لتحديد معنى الشدة والرخاوة؛ فالحرف الشديد عنده هو الحرف الذي يمنع الصوت أن يجري فيه؛ وهذه الحروف هي: (الهمزة، والقاف، والكاف، والجيم، والطاء، والتاء، والذال، والباء). ويضرب مثلا على ذلك أننا لو قلنا لفظ (ألحج) ثم مددنا أصواتنا لم يجر ذلك. أما الحروف الرخوة فقد حصرها في: (الهاء، والحاء، والغين، والخاء، والشين، والصاد، والضاد، والزاي، والسين، والظاء، والثاء، والذال، والفاء)؛ وذلك إذا قلت الطس وانقض، وأشبه ذلك أجريت فيه الصوت إن شئت. وأما العين فبين الرخوة والشديدة، تصل إلى التريد فيها لشبهها بالحاء"³، وقد فصل هذا العالم في كل حرف على حدة، مبينا خصائص وميزات كل حرف من حروف العربية.

3- فروع الدرس الصوتي التراثي:

أما إذا عجنا على فروع أو اتجاهات هذا العلم في التراث العربي نجد أن مجالات توظيفه قد تعددت وتنوعت؛ سواء في الدرس اللساني أو في علوم الدين، وأول تلك الاتجاهات أو الفروع نجد اللغويين على رأسهم الخليل الفراهيدي وقد كانت إشارة ذلك في خطبة كتابه العين - كما أشرنا سابقا - ثم صار ديدن اللغويين ممن جاءوا بعده وذلك بالاستعانة بخلاصة الدرس الصوتي لتفسير قضايا صرفية ذات منشأ صوتي؛ كالإدغام والحذف والإبدال وغيرها، وهذا ما أسس له سيبويه في مصنفه (الكتاب) وقد قام ابن جني بعد ذلك بالتوسع في هذه القضايا، ثم انتقل إثر ذلك وصار منتشرا في كتب علم الصرف

بالخصوص، ثم جاء الاتجاه الثاني وتحديدًا في القرن الرابع الهجري والذي مثله دارسو النقد والبلاغة والإعجاز معاً، وقد ارتكزت دراساتهم على فصاحة الألفاظ بحسب مخارج حروفها وانتلاف تلك الحروف فيما بينها، وإيضاح حسن التأليف من قبحه، ومن رواد هذا الاتجاه نجد (أبا الحسن الرماني) و(فخر الدين الرازي) و(أبا بكر السكاكي) و(تقي الدين السبكي) وغيرهم الكثير، خاصة بعدما توفر لهؤلاء من مادة معرفية أنتجها أسلافهم. وأما ثالث هذه الاتجاهات وأهمها وأكثرها مؤلفات فهم علماء التجويد، ويتفق العديد من المتخصصين أن أول ظهور له كان في الثلث الأول من القرن الرابع للهجرة، وذلك بعد التطور الهائل الذي عرفه علم القراءات من جهة، والصوتيات من جهة أخرى، فالقراءات التي بعثت في اللغويين أنظاراً صوتية حرضتهم على الدرس المنظم، عادت بعد أن تطاول العهد بالناس فابتعدوا عن السليقة وحسن التلقي إلى اللغويين لتستعين بدرسهم الصوتي لتعليم تجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، وترجع بداية علم التجويد من حيث المصطلح إلى القرن الرابع الهجري عند ابن المجاهد (ت324هـ)، والخاقاني (ت325هـ) ثم ظهر بعد ذلك من المؤلفات حتى العصر الحاضر الشيء الكثير مما لا يزال معظمه مخطوطاً⁴.

4- تعريف علم التجويد:

يذهب العديد من المهتمين بهذا العلم إلى القول بأنه لم يكن هناك مصطلح علم التجويد بمعنى العلم الذي يدرس الحروف من حيث المخارج والصفات، وما ينجرّ عن ذلك من أحكام عند نطقها إلا مع بداية القرن الخامس الهجري، إضافة إلى أن الباحث في هذا المجال لن يجد كتاباً قد أُلّف قبل القرن الرابع الهجري، وهذا يجعلنا نستنتج أنّ علم التجويد تأخر ظهوره كعلم له أسسه وقواعده بالمقارنة مع الكثير من علوم القرآن وعلوم العربية.

وقبل أن نعرض لهذا العلم كرونولوجياً وعلاقته بعلم الأصوات وعلم القراءات ارتأينا أن نعرض لتعريف هذا العلم والذي يعني التحسين في اللغة في حين يعني اصطلاحاً العلم الذي يبحث فيه عن مخارج الحروف وصفاتها، ويمكن أن يعبر به عن إعطاء الحروف حقها من المخارج، وما تستحقه من الصفات؛ فله معنيان اصطلاحيان، وإن أريد به العلم المذكور فقد يضاف إليه لفظ العلم. قيل موضوعه كلمات القرآن، يعني حروفها. وتجويد القرآن قد يحصله الطلاب بمشاهدة الشيخ المجوّد بدون معرفة مسائل هذا

العلم، بل المشافهة هي العمدة في تحصيله. وعلى من أراد اتقانه عليه معرفة أو إدراك ثلاثة علوم هي؛ علم القراءات، وعلم مرسوم المصاحف، وعلم الوقف والابتداء⁵.

إذا كان علم النحو يركز على اللحن في الإعراب؛ أي في الحركات الإعرابية فإن علم التجويد يركز على اللحن في الحركات الصوتية -إن صحَّ التعبير- ويقسم علماء التجويد -من خلال دراساتهم للأصوات- اللحن إلى شقين أحدهما جلي واضح، والآخر خفي لا يعرفه إلا المتخصصون، فالأول أي الجلي يقصدون به الخطأ الظاهر في الحركات الإعرابية، وهو ميدان عمل النحاة، أما الثاني أو الخفي فهو الخطأ الذي يعتري الأصوات من جهة عدم إعطائها حقها من المخارج أو الصفات، أو معهما جميعاً، وكذا ما قد يحدث لها من أحكام لدبرصفها في منطوق الكلام، وقد أكد متخصصو هذا الشق من المعرفة أن هذا هو مبدأ عمل علماء التجويد تحديداً، وهو في نظرهم علم يقوم على التركيز على ثلاثة أمور في دراسته وهي: مخارج الحروف، وصفاتها، وأحكامها التركيبية، وهذه تقريبا هي أهم عناصر هذا العلم، ومن المعروف لدى علماء التجويد أنه يجب على قارئ كتاب الله -جل وعلا- وبعد تجنب اللحن الجلي (النحوي والصرفي) أن يدرك أو يتعلم اللحن الخفي المتعلق بالجانب الصوتي، لأن اللحن لحنان -كما سبقت الإشارة- لحن جلي وآخر خفي، فالأول أي الجلي هو رفع المنصوب وتنصب المجرور، وهو لحن يعرفه من عرف العربية، وأما اللحن الخفي فلا يعرفه ويدركه إلا المقرئ المتقن الضابط الذي تعلم عن المشايخ الذي يعطي كل حرف حقه دون زيادة أو نقصان وكذلك دون إفراط في نطق الحركات.

ومن أمثلة التجويد الصوتي في سورة الفاتحة ما ورد على لسان السعدي في مؤلفه التنبيه: "وأنا ذاكر من جملة ذلك حروفا يسيرة تدل على سائر ما في القرآن... قوله تعالى: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ينبغي أن يلفظ بالباء قبل السين مخففة ولا تضغط في مخرجها ولا يزداد على لفظها... وكذلك إن كانت قبلها نون ساكنة مثل: (أَنْبِئُهُمْ) و(أَنْبِئُونِي) و(مَنْ أَنْبَأَكَ) و(فَأَنْبَجَسْتُ) و(مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ) وما أشبهها لأن النون تصير عندها ميماً"⁶.

وكذلك التنوين نحو (بَغْيًا بَيْنَهُمْ) و(آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ) و(خَيْرٌ بِصِيرٍ)، فيجب أن يلفظ بها مخففة، ويتوقى فيها من التشديد، وهي مثل إخفاء الميم عند الباء في قراءة أبي عمرو ونحو قوله: و(أَعْلَمَ بِالظَّالِمِينَ) و(عَلَّمَ بِالْقَلَمِ) و(يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ)، وقد رأيت بعض من يقرأ لأبي عمرو يدغمه إدغاما محضاً، أعني الميم ويشدد الباء بعدها، وهو مخطئ، لأن الميم لا تدغم في الباء، وإنما هو إخفاء، والباء بعدها مخففة. (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) يسرع اللفظ بالكاف من (إِيَّاكَ)

بعد الألف، ولا يتوقف فيها فتصير ممدودة ويبين فتحة الواو بعد الدال المضمومة من (نعبد) لأن الواو وإن كانت مفتوحة هي أصل الضمة والضممة منها تتولد، فيبين فتحها، بعد بيان ضمة الدال من (نَعْبُدُ)⁷. (نَسْتَعِينُ) إذا وقف القارئ عليها يزيد على لفظها زيادة مد لاجتماع الساكنين في الوقف الياء والنون، ولا يفرط فيها، ويُشَمُّ النون الرفع شاماً خفيفاً من غير أن يلحق الإشمام بالحركة، لأن الإشمام هو أن تضم شفتيك ولا يسمع عندها صوت، وإن أحب أن يترك الإشمام فليترك النون ساكنة، ولا تشوبها حركة ولا اختلاس لأن الوقف يكون على الساكن، والإشمام أحب إلينا في ذلك وما أشبهه خاصة لمن يقرأ بحرف حمزة والكسائي... ولا يكون ذلك إلا في المرفوع والمجرور، وأما المفتوح فلا إشمام فيه⁸. (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) بتصفية الصاد لمن كانت قراءته بالصاد، ولفظ بالطاء خفيفة لأنها شديدة في نفسها مطبقة، وتخفف أيضا الطاء من قوله: (اصطبر) و(اصطفى)، و(بَسْطَةً) و(فَمَا اسْطَاعُوا)، إلا في قراءة حمزة عين (فَمَا اسْطَاعُوا) فإن الطاء منها مشددة في قراءته فيجب أن تخفف الطاء في هذه الحروف كلها تخفيفاً جيداً، وتبرز الصاد قبلها إبرازاً جيداً، لأنهما قد تجانسا من جهة الإطباق وكادت الصاد أن تندغم في الطاء⁹. (وَلَا الضَّالِّينَ) يمد مداً وسطاً دون مد (طَائِعِينَ) و(خَائِفِينَ) و(سَائِعٌ شَرَّابُهُ) وما أشبه ذلك، وإنما مده على مقدار المد في قوله تعالى: «فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ» و(الظَّالِّينَ بِاللَّهِ) وما أشبه ذلك... ويؤمر القارئ بتجويد الضاد من (الضَّالِّينَ) وغيرها، خاصة إذا لقيتها (ظاء) نحو قوله (يَعِصُ الضَّالِّينَ)، (أَنْقَضَ ظَهْرَكَ) وما أشبهها¹⁰.

5- علم التجويد وعلاقته بعلم الصوتيات وعلم القراءات:

رغم أن البحث في هذا العلم ظهر نهاية القرن الرابع الهجري؛ إلا أن ذلك قد سبقه إرهابات له بسبب علاقته بالنص القرآني، ويجد الباحث في بعض المصادر أن عبد الله بن مسعود الصحابي -رضي الله عنه- قد أكد على تجويد القرآن الكريم، ومما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ سورة المزمل الآية 04. عدم العجلة في القراءة أي القراءة على مهل وتدبر للمعاني، "وقال الضحاك: وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً قال: اقرأه حرفاً حرفاً وقال مجاهد: أحب الناس إلى الله تعالى في القراءة أعقلهم... وَالتَّرْتِيلُ التَّنْضِيدُ وَالتَّنْشِيقُ وَحُسْنُ النِّظَامِ"¹¹.

وتأسيسا على النصين السابقين فإن المسلمين اهتموا بتجويد القرآن عملا، ولم ينظروا لذلك إلا بعد ذلك بحوالي أربعة قرون من الزمن، ويرجع المتخصصون في علم التجويد بالمعنى الاصطلاحي ظهوره إلى (موسى بن عبد الله الخاقاني البغدادي المتوفي سنة 325هـ)، ويعتبرونه أول من وضع مصنفًا في التجويد وقصيدته الرائية المشهورة وشرحها الحافظ أبو عمرو¹²، وتؤكد الدراسات في هذا المجال أن رائد هذا الاستعمال المصطلحي (التجويد) هو أبو الحسن علي بن أبي جعفر السعدي المتوفي في حدود 410هـ، فقد قال في أول كتابه (التنبية على اللحن الجلي واللحن الخفي): سألتني... أن أصنف لك نبذا عن تجويد لفظ بالقرآن، وقال في موضع آخر: ويؤمر القارئ بتجويد الضاد من (الضالين) وغيرها، وشاع استخدام مصطلح (التجويد) بعد عصر السعدي على نطاق واسع¹³.

وقد نشطت حركة التأليف في هذا العلم نهاية القرن الرابع الهجري وبداية القرن الخامس، ففي القرن الخامس الهجري انتشرت وتعددت المصنفات في هذا العلم، فبعد كتاب (التنبية على اللحن الجلي واللحن الخفي) للسعدي، ظهر في السنين الأولى من القرن الخامس الهجري في الأندلس كتابان ضخمان هما (الرعاية) لمكي بن أبي طالب القيسي (ت437هـ) و(التحديد) للأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت444هـ)، ومن هنا بدأت المصنفات المتخصصة في هذا العلم توالي وصولا إلى العصر الحديث.

سيجد المتابع لحركة التطور الذي حدثت لهذا العلم انتقاله من التلقائية واللامنهجية إلى التنظيم والتعديد، فلقد سيطر على هذا العلم في بدايته الاستماع أو المشافهة ثم العرض على الشيوخ، ومن المشهور أنه كانت تؤسس حلقات في أشهر المساجد للشيوخ القراء، ليجتمع طلبة العلم حول القارئ، ومن المؤكد أنالحفظ كان سبب ضبط القراءة، فكما هو معروف -قديمًا وحتى حديثًا- كان دور الشيخ هو الإنصات للطلاب وتصحيح أخطائهم على مستوى الحفظوعلى مستوى المخارج بالتوازي، كما كان الشيوخ يركزون على صفات الحروف خاصة، ويبدو أن طرق ضبط القراءات خصوصًا بعد ظهور المؤلفات النظرية وبصفة أخص المتونقد تطورت تطورًا منقطع النظير.

ويذهب العديد من الدارسين إلى أن علم تجويد الأصوات في القرآن الكريم لا يكاد ينقطع منذ ظهور أولى مؤلفاته في القرن الرابع الهجري إلى يوم الناس هذا، وهذه التواصلية في البحث تجلي وتظهر مدى ارتباط المسلمين بالقرآن العظيم من جهة، وحرصهم الشديد على تجويد حروفه وإتقان النطق بألفاظه، وقد أنتجت تلك الحركة التأليفية العشرات من

المصنفات على مدى القرون المتتالية، وما ذكره الباحث حاجي خليفة في كتابه (كشف الظنون) -وهو يتحدث عن علم التجويد- يعد شيئاً يسيراً جداً مقارنة بما هو معروف من كتب هذا العلم قال: وأول من صنف في التجويد موسى بن عبد الله بن يحيى بن خاقان الخاقاني البغدادي المقرئ المتوفى سنة خمس وعشرين وثلاثمائة (325هـ) ذكره ابن الجزري ومن مصنفاته فيه: (الدر اليتيم، وشرحه، ورعايته/ غاية المراد/ والمقدمة الجزرية وشرحها/ والواضحة)¹⁴. وقد عرض صاحب كتاب الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ببليوغرافياً لأهم الكتب والمخطوطات التي دبجت في هذا المجال، ونظراً لكثرتها يمكن للباحثين الرجوع إلى هذا المصنف والاطلاع عليها بالتفصيل¹⁵، وقد خلص إلى أنه يمكننا التمييز بين اتجاهين في التأليف في هذا المجال هما:

-الاتجاه العام الذي يعالج جميع الموضوعات المتصلة بعلم التجويد وهي الاتجاه الغالب في التأليف.

-الاتجاه الخاص الذي يعالج موضوعاً واحداً فيتعمق في دراسته ويستفيض في شرحه بشكل أكثر مما نجده في المؤلفات العامة¹⁶.

والباحث في الاتجاه الثاني يجد المتخصصين فيه يركزون على مخارج الحروف خاصة علماء اللغة والذين اشتغلوا عليها ردحاً من الزمن، وبالأخص علماء النحو والصرف وعلماء القراءات والتجويد، باعتبار أنهم هم أيضاً علماء لغة -أي علماء التجويد- إلا أن جهودهم هذه كان يعزوها التنظيم العلمي الدقيق والمنهج والمنظم.

وقد كان هذا العلم يرتبط بالعقيدة أساساً؛ أي بالنص القرآني وكيفية ترتيله وتجويده وإعطاء الحروف حقها في النطق تفادياً للحن؛ لأنه محرم. فهو يسبب تغيير دلالة الكلمات وبالتالي إفساد المعنى ككل. وإقامة وصحة القراءة القرآنية تعطي للنص القرآني لدى القارئ والسامع معاً جودته وصحة معانيه "فالقراءات القرآنية وجوه للأداء الشفهي للقرآن الكريم، تعتمد أساساً على النطق المجرد والسماع الدقيق والتلقي الصحيح وهي بذلك وجوه صوتية كاملة تزخر بالظواهر التي تحتاج إلى اتباع نهج العرب الفصحاء في النطق بما في ذلك الاختلافات التي عرفت فيما بينهم، والتي جَوَّزها القراء عند توفر القراء على كامل شروطها"¹⁷، إذًا فصحة الأداء الصوتي بالنسبة للموجود أو المتخصص في علم

التجويد تنطلق أساساً من اتباع نهج العرب الفصحاء في النطق ولو اختلفت القراءات، وهنا يتقاطع علم التجويد بالدرس الصوتي.

ويبدو أن القراء بكل تفرعاتهم قد أولوا عناية كبيرة لصحة النطق بالأصوات العربية خاصة ما تعلق بالقرآن الكريم، وقد حذروا مراراً وتكراراً المتعلمين من الزلل أو الخطأ في النطق بحروفه، وقد بينوا لهم الأخطاء الشائعة في لهجات الكلام بغية اجتناب الوقوع فيها، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً ومنتشرة في الكتب المتخصصة وسنأخذ هذا النموذج وهو تحذير ابن الجزري المتعلمين من تفخيم (الباء) إذا كان بعدها صوت فخم نحو (بطل) وإشارته إلى وجوب العناية (بالتاء) لأن بعض الناس ينطقونها رخوة فتصير نوعاً من السين، وإلى العناية بنطق الجيم لأن في مصر وبعض بوادي اليمن ينطق بها كمجهور الكاف (وهي الجيم القاهرية)، وكذلك تميل الجيم المشككة بالسكون إلى قلبها (شينا) إذا وليها صوت مهموس كما في (اجتمعوا)¹⁸.

لقد كان للقراءات القرآنية وتجويدها من وجهة صوتية الفضل الجم والدور الكبير في ميلاد الدرس الصوتي الذي بني أساساً عليها، وقد كان لعلم التجويد السبق في ذلك رغم أنه علم متأخر من حيث الوضع النظري مقارنة مع بعض العلوم العربية الأخرى كالنحو، وقد كان علماء النحو القدامى أئمة القراءة كعمرو بن العلاء والكسائي، وإذا كان (الفيدا) هو الذي دفع الهنود إلى دراسة الأصوات اللغوية بتلك الدرجة من الإتقان التي يذكرها مؤرخو اللغة، فإن قراءة القرآن هي التي جعلت علماء العربية القدماء يتأملون أصوات اللغة ويلاحظون هذه الملاحظة الذاتية التي أنتجت في وقت مبكر جداً دراسة طيبة الأثر لا تبتعد كثيراً عما يقرره علماء الصوتيات في عصرنا¹⁹.

ولعلم القراءات صلة شديدة بعلمي التجويد والأصوات نظراً للتداخل الحاصل بين هذه العلوم، وإذا ركزنا على هذا التداخل؛ فإن أقدم الكتب التي وصلت إلينا في مجال القراءات هو كتاب أبي بكر البغدادي المتوفي سنة 324هـ، والموسوم بالسبعة في القراءات، ولا يعثر الباحث في هذا المصنف على فصول تتعرض لقضية الأصوات العربية، وإنما يقع الباحث على الكثير من الملاحظات الصوتية المنتشرة في مختلف أجزاء الكتاب.

لقد كان علماء القراءة منشغلين -بالدرجة الأولى- بالرواية الصحيحة للنص القرآني وكذا الاهتمام الشديد ضبط حروفه كما تواترت عن طبقات علماء القراءة وصولاً إلى طبقة الصحابة، الذين تلقوا القرآن عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يمكن أن تعد الكتب التي

ألفها القراء في وصف القراءات القرآنية بداية للتأليف في علم التجويد؛ لأن علم القراءة وعلم التجويد وإن كان كل منهما يرتبط بألفاظ القرآن فهما يختلفان في الموضوع كما يختلفان في المنهج، أما الموضوع فإن علم التجويد لا يعنى باختلاف الرواة بقدر عنايته بتحقيق الألفاظ وتجويدها، مما لا اختلاف في أكثره بين القراء. وأما من حيث المنهج فإن كتب القراءات هي كتب رواية في حين أن كتب التجويد هي كتب دراسة.

إلا أننا ونحن نطلع على الدراسات التجويدية وجدنا أن أصحابها كثيراً ما يهتمون بالقراءات الخاصة أثناء مقارنتهم أو أثناء اختلاف النطق بالكلمات لدى المقرئين، ومن جهة المنهج فقد تحولت كذلك الدراسات التجويدية إلى الرواية بمرور الزمن بعدما وضع لها السلف القواعد والأسس. ولنثبت وجهة رأينا وجدنا أحد علماء السلف المتخصصين في التجويد يقول: "وقد وصف من تقدمنا من العلماء المقرئين والقراء فقال: القراء يتفاضلون في العلم بالتجويد، فمنهم من يعلمه رواية وقياساً وتمييزاً فذلك الحاذق الفطن، ومنهم من يعلمه سمعاً وتقليداً، فذلك الوهن الضعيف، لا يلبث أن يشك، ويدخله التحريف والتصحيف؛ إذ لم يبن على أصل ولا نقل عن فهم، وقال: ونقل القرآن فطنة ودراسة أحسن منه سماعاً ورواية"²⁰.

ودائماً في العلاقة بين القراءات وعلم التجويد فإن علم القراءات علم يدرك به اختلاف أئمة الأمصار في نظم القرآن في نفس حروفه، أو في صفاتها، فإذا ذكر فيه شيء من ماهية صفات الحروف فهو تتميم، إذ لا يتعلق الغرض به، وأما علم التجويد فالغرض منه معرفة ماهيات صفات الحروف، فإذا ذكر فيه شيء من اختلاف الأئمة فهو تتميم²¹، وبهذا يكون نوع من التداخل فيما بينهما، وعالم آخر يفصل وجهة النظر هذه فيقول: علم القراءات يتضمن مباحث صفات الحروف كالإدغام والإظهار والمد والقصر والتفخيم والترقيق هي من مباحث علم التجويد²²، وهي أيضاً من المباحث التي تناولها النحاة، وهنا نلاحظ مدى التداخل بين هذه العلوم عند محور الصوت.

6- خاتمة:

نستخلص مما سبق عرضه أن تأخر ظهور التأليف في علم التجويد لا يعني أن القراء طيلة هذا الزمن أي قبل التأليف في التجويد كانوا ينطقون القرآن بشكلاً خاطئاً، وكذلك هذا لا يعني أن علماء التجويد اخترعوا هذه المعرفة اختراعاً، والحقيقة أن القراء أو المهتمين

بالقراءات القرآنية كانوا يهتمون اهتماماً فائقاً بتجويد ألفاظ القرآن الكريم وإعطاء حروفه حقها منذ أن نزل على المصطفى صلى الله عليه وسلم. وقد تعلموا ذلك من رسول الله ومن كلام العرب؛ لأن تجويد الكلام كان موجود في كلام العرب؛ بمعنى أن معظم أصول التجويد كان سليقة في العربية ولدى العربي، نقلها القراء إلى قراءاتهم، كما نقلوا القواعد النحوية والصرفية من أشعار العرب القدامى ومن أقوالهم. وكما فعل علماء اللغة بالنحو والصرف وقواعد اللغة فعل علماء التجويد.

من المؤكد أن علماء العربية ونقصد النحاة واللغويين قد تقدموا علماء التجويد في دراسة الأصوات العربية بزمان طويل، وقد تناسبت دراستهم مع القضايا التي كانوا يعالجونها أو يركزون البحث فيها، فالمطلع على معجم (العين) للخليل مثلاً يجد أن دراسته للأصوات كانت علمها الأولى هي صناعة المعجم وتنظيمه وكذا بناء أو مورفولوجيا الكلمات، وعندما بدأ بترتيب الحروف في أول معجمه وتعريف القارئ على طريقته في اختيار مخارجها كان دافعه هو تبيان الطريقة التي سار عليها في التأليف، وكذلك كلامه عن الحروف الذلجية كان مرتبطاً بأبنية الكلمات الرباعية والخماسية، ومثل ذلك كلامه عن تقسيم الحروف إلى صحاح ومعتلة كان مرتبطاً بتوزيع الكلمات في أبواب المعجم. أما دراسة سيبويه للأصوات في (الكتاب) وهو يبين خطته في الكتاب يذكر أيضاً أحوال هذه الحروف في مخارجها ومدارجها وانقسام أصنافها وأحكام مجهورها ومهموسها وشديدها ورخوها، ثم أفرد فيما بعد لكل حرف منها باباً اغترف فيه ذكر أحواله وتصرفه في الكلام من أصليته وزيادته وصحته وعلته وقلبه إلى غيره وقلب غيره إليه²³، كانت دراسة الأصوات عند علماء العربية ترتبط بأغراض معينة في الموضوعات التي كانوا يبحثونها ولم تكن تتبع نظرة شاملة مستقلة تهدف إلى بيان النظام الصوتي للغة العربية وما يخضع له هذا النظام من الاعتبارات الصوتية في الكلام المنطوق²⁴، بمعنى هنا غياب التنظيم والتخصص والتعمق، والتركيز الجزئي في المسائل المدروسة، وهذه تقريبا سمة البحث التراثي في مجال اللغة والأدب والنقد.

ويبدو أن ما جاء به أبو حيان الأندلسي النحوي في مجال الدراسة الصوتية كان ذا بال، إذ يقول أحد تلامذته وهو علي بن غانم المقدسي بن غنام في كتابه بغية المرتاد لتصحيح الضاد: قال الأستاذ أبو حيان في شرح التسهيل إنما ذكر النحويون صفات الحروف لفائدتين؛ أحدهما لأجل الإدغام والثانية بيان الحروف العربية حتى ينطق بها غير العربي مثل العربي، فكما أن نصب الفاعل ورفع المفعول لحن، كذلك النطق بالحروف

مخالفة مخارجها لما روي من العرب في النطق بها لحن، وتنبغي الإشارة هنا إلى أن أبا حيان الأندلسي لم يكن نحويًا كبيرًا فحسب، وإنما كان أيضًا عالمًا كبيرًا من علماء القراءات والتجويد، وقد وصفه الجزري في كتابه (النشر) بأنه شيخ التجويد وبأنه أستاذ العربية والقراءات، ولا يستبعد أن يكون هذا الاتجاه الجديد عند أبي حيان متأثرًا من تأثره بعلم التجويد الذي كان ينحو هذا المنحى في دراسة الأصوات العربية²⁵.

مراجع البحث وإحالاته:

- 1- أبو الفتح عثمان بن جني، سر صناعة الإعراب، دارالكتب العلمية بيروت-لبنان، ط.1، 1421هـ-2000م، ج.1، ص.19.
- 2- إبراهيم الأنيس، الأصوات اللغوية، الأصوات اللغوية مطبعة نهضة مصر، القاهرة، د.ت. ص.4.
- 3- سيبويه، الكتاب، حقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1988، ج.4، ص.ص.434-435.
- 4- ينظر: أحمد محمد قدور، اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي، دار الفكر، دمشق، سورية، 2001، ص.ص.67-68.
- 5- محمد بن أبي بكر المرعشي، الملقب بساحلي زاده، جهد المقل، تحقيق غانم قدوري الحمد، دار عمان، الأردن، ط.2، 2008، ص.110.
- 6- المرجع نفسه، ص.262.
- 7- المرجع نفسه، ص.263.
- 8- المرجع نفسه، ص.263.
- 9- المرجع نفسه، ص.ص.264-265.
- 10- المرجع نفسه، ص.ص.265-266.
- 11- محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش الناشر: دار الكتب المصرية القاهرة، الطبعة: الثانية، 1384هـ-1964م، مج.19، ص.ص.37-38.
- 12- ينظر: ابن الجزري الدمشقي، غاية النهاية في طبقات القراء، دار الكتب العلمية، بيروت، 2006، ط.2، ص.280.
- 13- غانم قدوري الحمد، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ص.18.
- 14- ينظر: غانم قدوري الحمد، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ص.24.
- 15- ينظر: المرجع نفسه، الصفحات من 25 إلى 42.
- 16- ينظر: المرجع نفسه، ص.44.
- 17- قدور أحمد محمد، اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي، دار الفكر، سورية، 2001، ص.66.

- 18- ينظر: إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1975، ط.5، ص.179.
- 19- ينظر: عبده الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د.ت، ص.ص.129-130.
- 20- مكي بن أبي طالب القيسي، الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، تحقيق مكتبة قرطبة لبحث العلمي وتحقيق التراث، 2004، ط.1، ص.39.
- 21- محمد بن أبي بكر المرعشي الملقب بساجلي زادة، جهد المقل، ص.115.
- 22- محمد بن أبي بكر المرعشي، ترتيب العلوم، تح. محمد بن إسماعيل السيد أحمد، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1988، ص.138.
- 23- أبو الفتح عثمان بن جني، سر صناعة الإعراب، ج.1، دارالكتب العلمية بيروت-لبنان، ط.1، 1421هـ-2000م، ص.18.
- 24- ينظر: غانم قدوري الحمد، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ص.ص.45-46.
- 25- ينظر: المرجع نفسه، ص.47.
- 8- قائمة المصادر والمراجع:
- (1) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، الأصوات اللغوية مطبعة نهضة مصر، القاهرة، د.ت.
- (2) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1975، ط.5.
- (3) ابن الجزري الدمشقي، غاية النهاية في طبقات القراء، دار الكتب العلمية، بيروت، 2006، ط.2.
- (4) أبو الفتح عثمان بن جني، سر صناعة الإعراب، دارالكتب العلمية بيروت-لبنان، ط.1، 2000م.
- (5) أحمد محمد قدور، اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي، دار الفكر، دمشق، سورية، 2001.
- (6) سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1988، ج.4.
- (7) عبده الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د.ت.
- (8) غانم قدوري الحمد، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، دار عمار، عمان، الأردن، 2003.
- (9) قدور أحمد محمد، اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي، دار الفكر، سورية، 2001.
- (10) محمد بن أبي بكر المرعشي، ترتيب العلوم، تح. محمد بن إسماعيل السيد أحمد، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1988.
- (11) محمد بن أبي بكر المرعشي، الملقب بساجلي زاده، جهد المقل، تحقيق غانم قدوري الحمد، دار عمان، الأردن، ط.2، 2008.
- (12) محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، 1384هـ-1964م، مج.19.
- (13) مكي بن أبي طالب القيسي، الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، تحقيق مكتبة قرطبة لبحث العلمي وتحقيق التراث، 2004، ط.1.